٢

قصص من وحي الحديث الشريف



قاتل المائة

بقلم : عبد الحميد عبد المقصود
رسوم: عبد الشافى سيد

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



لَيْسَ عَيْبًا أَنْ يُخْطِئَ الْإِنْسَانُ ..

وَلَكِنَّ الْعَيْبَ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِى ارْتِكَابِ الْأَخْطَاءِ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ مُخْطِئٌ ..

لَيْسَ عَيْبًا أَنْ يَرْتَكِبَ الْإِنْسَانُ مَعْصِيَةً .. أَوْ يَقْتَرِفَ إِثْمًا ..

وَلَكِنَّ الاسْتِمْرَارَ فِى ارْتِكَابِ الْمَعَاصِى، وَاقْتِرَافِ الْآثَامِ هُوَ الْخَطَأُ كُلُّ الْخَطَإِ ..

قَدْ يُخْطِئُ إِنْسَانٌ مَا دُونَ قَصْدٍ .. هَذَا مَقْبُولٌ .. فَكُلُّ الْبَشَرِ خَطَّاءُونَ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ رَبِّى ..

وَالْعَيْبُ أَنْ يُخْطِئَ الْإِنْسَانُ، وَيَسْتَمِرَّ فِى الْخَطَإِ، دُونَ أَنْ يُسَارِعَ بِإِعْلَانِ تَوْبَتِهِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ ..

فَمَنْ أَخْطَأَ وَتَابَ، تَابَ اللهُ (تَعَالَى) عَلَيْهِ، وَصَارَ كَمَنْ لَمْ يُخْطِئْ أَوْ يَرْتَكِبْ ذَنْبًا ..

إِذَا تَدَارَكَ الْإِنْسَانُ خَطَأَهُ، وَتَابَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، قَبِلَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ تَوْبَتَهُ، وَتَغَاضَى عَنْ سَيِّئَاتِهِ، وَقَدْ يُبَدِّلُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ بِحَسَنَاتٍ، فَضْلًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَرَحْمَةً، بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّوْبَةُ تَوْبَةً نَصُوحًا خَالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ (تَعَالَى)، فَلَا يُفَكِّرُ التَّائِبُ بَعْدَهَا فِى الرُّجُوعِ لِلْمَعَاصِى أَبَدًا ..



وَبَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ أَمَامَ التَّائِبِينَ لَيْلَ نَهَارَ ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَشْمَلُ عِبَادَهُ فِي كُلِّ آنٍ .. الْمُهِمُّ أَنْ يُبَادِرَ الْمُخْطِئُ إِلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ ، وَرَحِيلِ الْعُمْرِ

وَهَذَا هُوَ مِحْوَرُ قِصَّةِ « قَاتِلِ الْمِائَةِ » أَوِ « الْقَاتِلِ التَّائِبِ » الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ..

وَلْنَدَعْ « قَاتِلَ الْمِائَةِ » يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ ، مُنْذُ كَانَ صَغِيرًا ، وَكَيْفَ وَعَتْ عَيْنَاهُ الدُّنْيَا ، حَتَّى صَارَ قَاتِلًا مُحْتَرِفًا فَقَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَتُوبَ إِلَى اللهِ ، وَكَيْفَ أُوصِدَتْ أَبْوَابُ التَّوْبَةِ فِي وَجْهِهِ ، فَقَتَلَ مَنْ أَوْصَدَ الْبَابَ فِي وَجْهِهِ وَصَدَّهُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ يَحْمِلُ لَقَبَ « قَاتِلِ الْمِائَةِ » ..

يَقُولُ « قَاتِلُ الْمِائَةِ » :

وُلِدْتُ وَنَشَأْتُ وَتَرَبَّيْتُ فِي قَرْيَةٍ ظَالِمَةٍ .. مُعْظَمُ أَهْلِهَا يَأْمُرُ بِالْمُنْكَرِ ، وَيَنْهَى عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَلَا يُحِبُّ الطَّيِّبَ مِنَ الْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ .. قَرْيَةٍ ظَالِمَةٍ لَا تَرْعَى الْأُصُولَ أَوْ تَحْتَرِمُ التَّقَالِيدَ .. قَرْيَةٍ يَعْتَدِي فِيهَا الْقَوِيُّ عَلَى الضَّعِيفِ ، وَيَسْلُبُهُ حُقُوقَهُ .. قَرْيَةٍ لَا يَحْتَرِمُ

فِيهَا الصَّغِيرُ الكَبِيرَ ، أَوْ يُوَقِّرُهُ ، وَلَا يَعْطِفُ فِيهَا الْكَبِيرُ عَلَى الصَّغِيرِ أَوْ يُوَجِّهُهُ .. قَرْيَةِ الضَّعِيفُ فِيهَا ضَائِعٌ مَهْضُومٌ حَقُّهُ ، وَالْقَوِيُّ فِيهَا جَبَّارٌ ظَالِمٌ وَمُحْتَرَمٌ مِنَ الْجَمِيعِ ..

وَمِمَّا زَادَ هَذِهِ الْقَرْيَةَ سُوءًا وَجَعَلَهَا مَلْعُونَةً ، وَمَغْضُوبًا عَلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْقُرَى ، أَنَّ مُعْظَمَ أَهْلِهَا لَمْ يَكُونُوا عَلَى عِلَاقَةٍ طَيِّبَةٍ بِاللهِ (تَعَالَى) .. لَمْ يَكُنْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْقَرْيَةِ ، يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، أَوْ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، أَوْ يَتَصَدَّقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَيُحْسِنُونَ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْبُؤَسَاءِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِمْ .. بَلْ إِنَّهُمْ كَانُوا يُهِينُونَ الضَّيْفَ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ



يُكْرِمُوهُ ، وَيأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى بَدَلًا مِنْ أَنْ يُحافِظُوا عَلَيْهَا ، وَيُنَمُّوهَا ..

بِاخْتِصَارٍ كَانَتِ الْقَرْيَةُ الظَّالِمَةُ الَّتِى نَشَأْتُ وَتَرَبَّيْتُ فِيهَا قَرْيَةً تَحْوِى كُلَّ مَسَاوِئِ الْبَشَرِ ، سَوَاءٌ فِى عِلَاقَتِهِمْ بِاللهِ أَوْ فِى عِلَاقَتِهِمْ بِالْآخَرِينَ .. وَكَانَ وَالِدِى وَوَالِدَتِى مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمَةِ .. كَانَ أَبِى وَاحِدًا مِنْ رِجَالِهَا ، وَكَانَتْ أُمِّى إِحْدَى نِسَائِهَا .. فَلَمْ يَكُونَا يَخْتَلِفَانِ عَنْ مُعْظَمِ رِجَالِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ فِى كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ ..

لَمْ أَرَ أَبِى أَوْ أُمِّى ذَاتَ يَوْمٍ يُصَلِّيَانِ للهِ (تعالى) .. وَلَا رَأَيْتُهُمَا أَكْرَمَا ضَيْفًا أَوْ تَصَدَّقَا عَلَى فَقِيرٍ أَوْ مِسْكِينٍ ، أَوْ سَاعَدَا مُحْتَاجًا ، أَوْ أَمَرَا بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ نَهَيَا عَنْ مُنْكَرٍ .. أَوْ هَمَّا لِنَجْدَةِ جَارٍ أَوْ قَرِيبٍ فِى مِحْنَةٍ .. بِاخْتِصَارٍ لَمْ يُعَلِّمَانِى قِيمَةً وَاحِدَةً مِنْ قِيَمِ الْخَيْرِ ، وَلَمْ يَنْهَيَانِى عَنْ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ الشَّرِّ ..



وكانَ القانونُ المُسيطرُ فى بيتنا ـــ كما فى قريتنا ـــ هُو قانونُ الغابِ ، حيثُ القويُّ يأكلُ الضعيفَ .. وكان أبى كثيرا ما يَبطشُ بنا ، كما يبطشُ بجيرانِنا وأهلِ قريتنا لأتفهِ الأسبابِ .. فقدْ كانَ أبى رجُلا قويًا مُتسلِّطًا . وكان يثورُ لأتفهِ الأسبابِ ، وقدْ يقتُلُ منْ أمامهُ إذا عارضهُ ، حتى ولوْ كانَ أبى هُو المُخطئ .. وقدْ اكتسبَ أبى مكانةً رفيعةً بينَ الجميعِ بسببِ قُوته وسطْوته وجبرُوته ، فكانَ الجميعُ يخافُونَ منهُ ، ويعملُونَ لهُ ألفَ حسابٍ ، حتى وهُو غائبٌ ..

وكانَ خوْفُ الناسِ منْ أبى واحترامُهُمْ لهُ ، سببَ إعجابى بهِ ، فتمنيتُ منذُ صغرى أنْ أكونَ ذا شخصيةٍ جبارةٍ مثلِ أبى .. وفى الحقيقةِ كانَ أبى باستمرارٍ يُنمى فىَّ هذا الشعُورَ ويعملُ على تقويتِهِ ، وكثيرًا ما كانَ يقولُ لى :

« يجبُ أنْ تكُونَ خشنًا صُلْبَ العُودِ ، تأخُذُ حقَّكَ بالقوةِ والبطْشِ ، حتى يحترمَكَ الناسُ ، ويعملُوا لكْ ألفَ حسابٍ سواءٌ فى حُضُورِكَ أوْ حتى وأنْتَ غيرُ موْجُودٍ بينهُمْ » ..

وكانَ الصغارُ ممنْ هُمْ فى سنى أوْ أكبرَ منى يهابُونَ أبى ويتنحوْنَ عنِ الطريقِ الذى يعلمُونَ أنهُ سيمُرُّ فيهِ ، بسببِ صلابتِهِ وقسْوةِ قلْبِهِ ..

بالتدريجِ والتعلُّمِ استطعتُ منذُ صغرى أنْ أكتسبَ منْ أبى مُعظمَ صفاتِهِ .. وقدْ ساعدنى على ذلكَ أنى كُنتُ فارِهَ الجسْمِ ، قويًا مثلَ أبى .. وكُنْتُ أيضًا خشنًا قاسىَ القلْبِ مثلهُ .. ولمْ أكتفِ بما تعلمْتهُ منْ أبى أوْ ورثْتُهُ عنْهُ ، بلْ إنَّ أصدقائى منْ رفاقِ السُّوءِ قدْ زوَّدُونى بعاداتٍ وأخلاقياتٍ جديدةٍ فى سُوءِ الأدبِ والتربيةِ لمْ أرثْها عنْ أحدٍ



مِنْ عائِلَتِي الْعَرِيقَةِ فِي سُوءِ الْأَخْلاقِ ..

وَأنا ابْنُ سِتِّ سَنَواتٍ ارْتَكَبْتُ أَوَّلَ حادِثَةٍ ، أَوْ جَرِيمَةٍ فِي حَياتِي .. فَقَدْ اعْتَدْتُ أَنْ يَحْتَرِمَنِي جَمِيعُ رِفاقِي وَأَتْرابِي بِسَبَبِ قُوَّتِي وَبَطْشِي ، فَكُنْتُ إِذا أَعْجَبَتْنِي لُعْبَةٌ أَوْ طَعامٌ بِيَدِ أَحَدِ الصِّغارِ حَتَّى لَوْ كانَ أَكْبَرَ مِنِّي آخُذُها مِنْهُ سَواءً بِرِضاهُ أَوْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُ .. وَبِالتَّدْرِيجِ تَعَوَّدَ الصِّغارُ مِنِّي ذَلِكَ ، فَكُنْتُ إِذا أَطَلْتُ النَّظَرَ إِلَى لُعْبَةٍ بِيَدِ أَحَدِهِمْ ، يُسارِعُ بِتَقْدِيمِها لِي فِي الْحالِ ، قَبْلَ أَنْ أَنْتَزِعَها مِنْهُ بِالْقُوَّةِ ..

وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كُنَّا نَلْعَبُ الْكُرَةَ ، أنا وَفَرِيقُ قَرْيَتِي مَعَ فَرِيقِ الْقَرْيَةِ الْمُجاوِرَةِ لَنا .. وَبَعْدَ انْتِهاءِ اللَّعِبِ أَرَدْتُ أَخْذَ الْكُرَةِ الَّتِي كُنَّا نَلْعَبُ بِها .. وَكانَتِ الْكُرَةُ مِلْكًا لِصَبِيٍّ مِنَ الْقَرْيَةِ الْمُجاوِرَةِ ، يَكْبُرُنِي بِعِدَّةِ سَنَواتٍ ، فَرَفَضَ هَذا التَّعِسُ أَنْ يُقَدِّمَ لِي الْكُرَةَ طَواعِيَةً ، كَما يَفْعَلُ رِفاقِي ــ مِنْ أَهْلِ قَرْيَتِي) مَعِي دائِمًا ، فَانْتَزَعْتُ الْكُرَةَ بِالْقُوَّةِ ،

فَاعْتَرَضَ الصَّبِيُّ ، وَحَاوَلَ جَذْبَ الْكُرَةِ مِنِّي بِالْقُوَّةِ ، لَكِنَّنِي تَشَبَّثْتُ بِالْكُرَةِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ انْتِزَاعَهَا مِنِّي ، فَاغْتَاظَ وَسَبَّنِي ، فَلَمْ أَتَمَالَكْ نَفْسِي مِنَ الْغَضَبِ ، وَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً قَوِيَّةً ، فَسَقَطَ الصَّبِيُّ بِرَأْسِهِ عَلَى حَجَرٍ كَبِيرٍ ، كُنَّا قَدْ جَعَلْنَاهُ عَارِضَةً فِي أَثْنَاءِ اللَّعِبِ ..

تَدَفَّقَ الدَّمُ مِنْ رَأْسِ الصَّبِيِّ بِقُوَّةٍ ، فَصَرَخَ مُتَأَلِّمًا .. وَلَمْ أَتَمَالَكْ نَفْسِي مِنَ الْخَوْفِ ، فَأَخَذْتُ أَجْرِي إِلَى مَنْزِلِنَا ،



وَبَعْدَ قَلِيلٍ حَضَرَ أَهْلُ الطِّفْلِ وَمَعَهُمْ طِفْلُهُمْ بَعْدَ أَنْ رَبَطُوا رَأْسَهُ بِعِصَابَةٍ ، وَشَكَوْا الْأَمْرَ لِأَبِي ، لَكِنَّ أَبِي بَدَلًا مِنْ أَنْ يَعْتَذِرَ لَهُمْ ، وَيَضْرِبَنِي أَوْ حَتَّى يُوَبِّخَنِي عَلَى هَذَا الْجُرْمِ الشَّنِيعِ ، اسْتَقْبَلَهُمْ مُقَابَلَةً غَيْرَ كَرِيمَةٍ ، وَرَاحَ يَكِيلُ لَهُمُ الشَّتَائِمَ .. ثُمَّ طَرَدَهُمْ مِنْ مَنْزِلِنَا شَرَّ طَرْدَةٍ ، فَخَافُوا مِنْ بَطْشِهِ وَجَبَرُوتِهِ وَانْصَرَفُوا مَخْذُولِينَ ..

وَبَعْدَ انْصِرَافِهِمُ اسْتَدْعَانِي أَبِي ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَوْفَ يَضْرِبُنِي أَوْ يُعَنِّفُنِي بِسَبَبِ سُوءِ سُلُوكِي ، لَكِنَّ أَبِي بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ أَبْدَى إِعْجَابَهُ بِي وَقَالَ لِي :

« هَكَذَا سَتَكُونُ رَجُلًا قَوِيًّا يَعْمَلُ لَكَ النَّاسُ أَلْفَ حِسَابٍ .. لَوْ أَنَّكَ كُنْتَ أَنْتَ الْمَضْرُوبَ لَكُنْتُ قَتَلْتُكَ ... » .

فَعَرَفْتُ أَنَّ أَبِي يُشَجِّعُنِي عَلَى أَنْ أَكُونَ أَنَا الْأَقْوَى دَائِمًا ..

مَرَّتْ سَنَوَاتٌ بَعْدَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ ، كَبِرْتُ خِلَالَهَا ، وَنَبَتَتْ عَضَلَاتِي وَصِرْتُ فِي عِدَادِ الشَّبَابِ الْأَقْوِيَاءِ ، بَلْ أَقْوَى شَابٍّ بِالْقَرْيَةِ .. فَصَارَ الْجَمِيعُ يَحْتَرِمُونَنِي ، وَيَعْمَلُونَ لِي أَلْفَ حِسَابٍ ..

وَذَاتَ يَوْمٍ حَدَثَتْ مُشَادَّةٌ كَلَامِيَّةٌ بَيْنَ شَابَّيْنِ كَانَ أَحَدُهُمَا قَرِيبًا لِي قَرَابَةً بَعِيدَةً ، وَلَمْ تَلْبَثِ الْمُشَادَّةُ أَنْ تَحَوَّلَتْ إِلَى مُشَاجَرَةٍ بَيْنَهُمَا ، فَتَدَخَّلْتُ لِأَنْصُرَ قَرِيبِي ، فَضَرَبْتُ الْآخَرَ ضَرْبَةً قَوِيَّةً سَقَطَ عَلَى إِثْرِهَا قَتِيلًا فِي الْحَالِ .. أَبْلَغَ الْحَاضِرُونَ الشُّرْطَةَ ، فَجَرَيْتُ لِأَخْتَبِئَ مِنْهُمْ فِي بَيْتِي ، فَجَاءَتِ الشُّرْطَةُ إِلَى مَنْزِلِنَا لِلْقَبْضِ عَلَيَّ ، فَتَسَلَّقْتُ حَائِطَ الْمَنْزِلِ الْخَلْفِيَّ وَهَرَبْتُ قَبْلَ أَنْ تَتَمَكَّنَ الشُّرْطَةُ مِنْ إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيَّ ..

وَتَحَيَّرْتُ إِلَى أَيِّ الْأَمَاكِنِ أَذْهَبُ بَعْدَ أَنْ أُوصِدَتْ جَمِيعُ الْأَبْوَابِ فِي وَجْهِي .. لَمْ يُوَافِقْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِي أَوْ أَصْدِقَائِي عَلَى إِيوَائِي أَوْ إِخْفَائِي عَنْ أَعْيُنِ الشُّرْطَةِ ..

وَأَخِيرًا لَمْ أَجِدْ مَكَانًا أَخْتَبِئُ فِيهِ سِوَى الْجَبَلِ الْقَرِيبِ الْمُطِلِّ عَلَى قَرْيَتِنَا ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ ، وَبَقِيتُ هُنَاكَ ، حَتَّى هَدَأَتِ الْأُمُورُ وَكَفَّتِ الشُّرْطَةُ عَنِ الْبَحْثِ عَنِّي .. لَكِنَّنِي لَمْ أَشَأِ الْعَوْدَةَ إِلَى مَنْزِلِي بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفْتُ مَجْمُوعَةً جَدِيدَةً مِنْ أَصْدِقَاءِ السُّوءِ ، كُلٌّ مِنْهُمْ كَانَ قَدِ ارْتَكَبَ أَكْثَرَ مِنْ جَرِيمَةٍ قَبْلَ أَنْ يَأْوِيَ إِلَى هَذَا الْجَبَلِ ..

فَوَجَدْتُ فِي رِفْقَةِ هَؤُلَاءِ مُتْعَةً لَمْ أَعْرِفْهَا مِنْ قَبْلُ ، فَكُنَّا نَقْضِي اللَّيْلَ فِي السَّمَرِ ، حَيْثُ يَتَحَدَّثُ كُلٌّ مِنْهُمْ عَنِ الْجَرَائِمِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا فِي حَيَاتِهِ ، وَأَهَمُّهَا جَرَائِمُ الْقَتْلِ ، وَكُنْتُ أَنَا بِالطَّبْعِ أَقَلَّهُمْ فِي عَدَدِ الْجَرَائِمِ ، حَيْثُ لَمْ أَرْتَكِبْ سِوَى جَرِيمَةٍ وَاحِدَةٍ ، لِذَا كَانُوا



يَضْحكُونَ مِنِّي ,وَيُسَمُّونَنِي «الْمُبْتَدِئ» .. فَأَقْسَمْتُ أَنْ أَكُونَ يَوْمًا مَا أَكْثَرَ مِنْهُمْ فِي عَدَدِ الْجَرَائِمِ، وَأَنْ أَضْرِبَ الرَّقْمَ القِيَاسِيَّ فِيهَا ..

مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالسَّنَوَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ كَئِيبَةً لَمْ أَذُقْ فِيهَا طَعْمًا لِلرَّاحَةِ، لَكِنَّنِي كُنْتُ قَدْ صِرْتُ قَاتِلًا مُحْتَرِفًا ..

بَدَأَتْ حِرْفَةُ الْقَتْلِ مَعِي بِالْقَتْلِ الْخَطَإِ .. ثُمَّ تَحَوَّلَتْ إِلَى هِوَايَةٍ، وَأَخِيرًا إِلَى احْتِرَافٍ .. أَصْبَحْتُ لَا أَسْتَطِيعُ الْعَيْشَ بِدُونِ قَتْلٍ، وَأَصْبَحَ الْقَتْلُ يَجْرِي فِي عُرُوقِي مَجْرَى الدَّمِ .. فَأَصْبَحْتُ أَقْتُلُ لِأَتْفَهِ الْأَسْبَابِ ..

قَتَلْتُ رَجُلًا .. ثُمَّ آخَرَ .. ثُمَّ ثَالِثًا .. سِلْسِلَةٌ طَوِيلَةٌ مِنْ عَمَلِيَّاتِ الْقَتْلِ، حَتَّى صَارَ مَجْمُوعُ مَا قَتَلْتُهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا .. وَذَاتَ صَبَاحٍ اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي مَفْزُوعًا عَلَى أَثَرِ كَابُوسٍ لَا أَدْرِي إِنْ كَانَ مُخِيفًا أَمْ مُزْعِجًا :

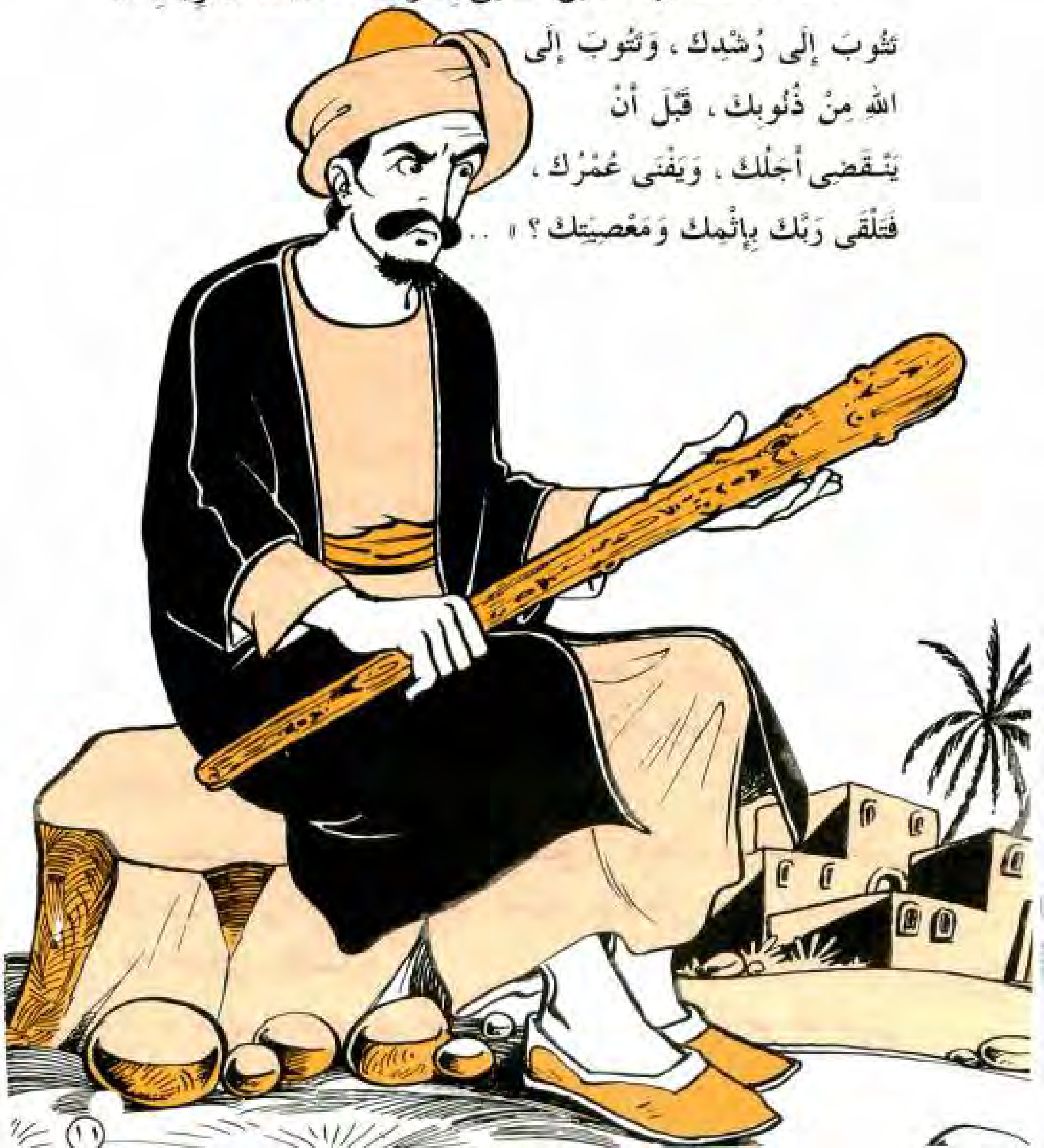
رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّنِي أَرْفَعُ عَصَايَ وَأَهْوِي بِهَا عَلَى ضَحِيَّةٍ مِنْ ضَحَايَايَ لِأَقْتُلَهَا .. كَانَ الضَّحِيَّةُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ شَيْخًا كَبِيرًا، لَكِنَّهُ وَقُورٌ طَيِّبٌ تَنْطِقُ مَلَامِحُهُ بِالتُّقَى وَالصَّلَاحِ .. لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ صِلَةٌ مَا، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ، وَلَا سَبَقَ لِي أَنْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يُخْطِئِ الرَّجُلُ فِي حَقِّي لِأَقْتُلَهُ، وَلَا أَعْرِفُ حَتَّى السَّبَبَ الَّذِي جَعَلَنِي أُقَرِّرُ قَتْلَهُ .. الْمُهِمُّ أَنَّ الْعَصَا ظَلَّتْ مُعَلَّقَةً فِي الْهَوَاءِ، وَجَاذِبَةً مَعَهَا ذِرَاعِي لِأَعْلَى كَأَنَّمَا تَجْذِبُهَا قُوَّةٌ خَفِيَّةٌ لَا قِبَلَ لِي بِمُقَاوَمَتِهَا، لَمْ تُطَاوِعْنِي



عَصَاىَ ، وَتَهْوِى عَلَى الرَّجُلِ فَأَقْتُلُهُ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَسْتَرِيحُ ..

وَفِى أَثْنَاءِ ذَلِكَ نَظَرَ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ إِلَىَّ مُبْتَسِمًا ، وَقَالَ لِى بِصَوْتٍ هَادِئٍ وَقُورٍ :

« أَمَا آنَ لَكَ أَيُّهَا الْقَاتِلُ الشَّقِىُّ بِذُنُوبِ ضَحَايَاكَ الْأَبْرِيَاءِ أَنْ تَثُوبَ إِلَى رُشْدِكَ ، وَتَتُوبَ إِلَى اللهِ مِنْ ذُنُوبِكَ ، قَبْلَ أَنْ يَنْقَضِىَ أَجَلُكَ ، وَيَفْنَى عُمْرُكَ ، فَتَلْقَى رَبَّكَ بِإِثْمِكَ وَمَعْصِيَتِكَ ؟ » ..



فَأنْزَلْتُ عَصَاىَ خَجَلًا مِنْهُ ، وَسَأَلْتُهُ :

« وَهَلْ لِقَاتِلٍ مِثْلِى مِنْ تَوْبَةٍ ، بَعْدَ أَنْ قَتَلْتُ تِسْعًا وتِسْعِينَ نَفْسًا ، حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِالْحَقِّ ؟ »

فَتَبَسَّمَ الرَّجُلُ وَقَالَ :

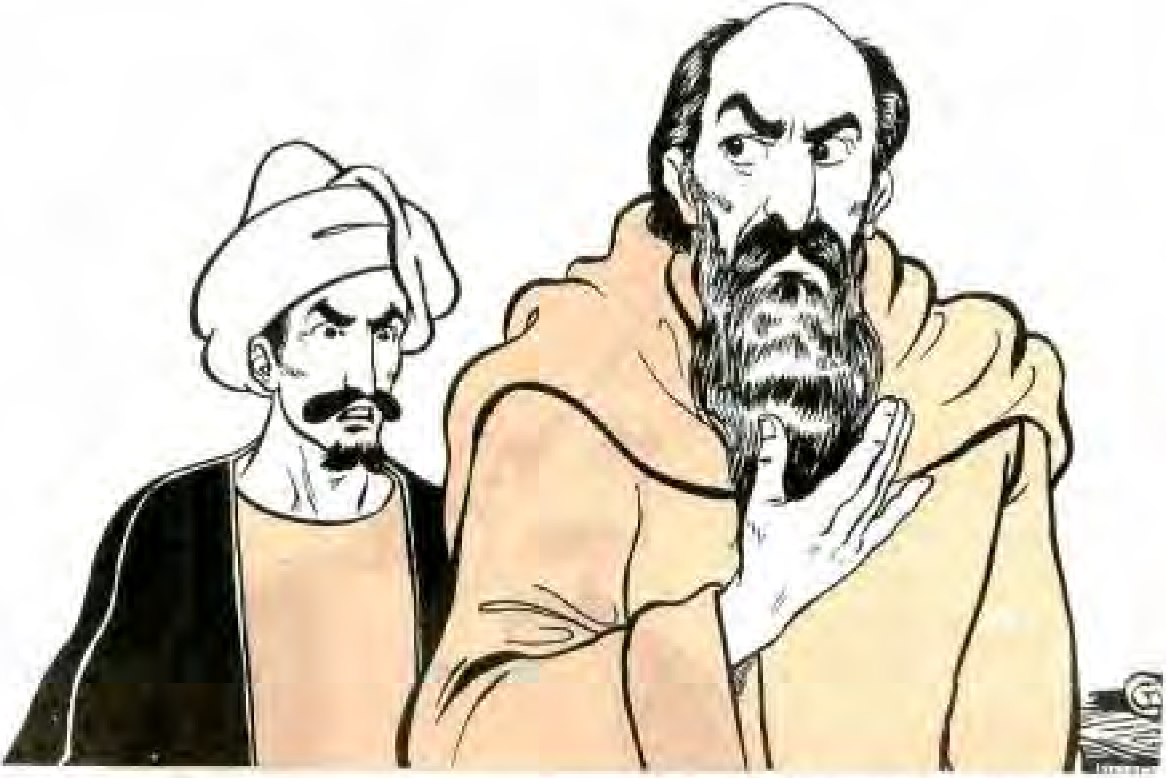
« لَا عِلْمَ لِى بِذَلِكَ .. اذْهَبْ إِلَى رَاهِبٍ فَهُوَ أَعْلَمُ مِنِّى وَمِنْكَ بِأُمُورِ الدِّينِ ، فَقَدْ يُفْتِيكَ إِنْ كَانَتْ لَكَ تَوْبَةٌ أَمْ لَا » ..

اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِى مَفْزُوعًا ، وَأَنَا لَا أَدْرِى مَاذَا أَفْعَلُ .. وَكَانَ أَوَّلُ شَىْءٍ فَعَلْتُهُ أَنَّنِى خَرَجْتُ أَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ فَسَأَلْتُهُمْ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَدَلُّونِى عَلَى رَاهِبٍ يُقِيمُ فِى صَوْمَعَتِهِ فِى الصَّحْرَاءِ ، وَيَعْبُدُ اللهَ فِى خَلْوَتِهِ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ ..

قَرَّرْتُ الذَّهَابَ إِلَى هَذَا الرَّاهِبِ فِى الْحَالِ لِأَسْتَفْتِيَهُ فِى أَمْرِى .. قَطَعْتُ الصَّحْرَاءَ مَاشِيًا عَلَى رِجْلَىَّ ، وَتَحَمَّلْتُ الْمَشَاقَّ وَسْطَ هَجِيرِ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى الرَّاهِبِ الَّذِى دَلُّونِى عَلَيْهِ أَخِيرًا .. كَانَ بَابُ الصَّوْمَعَةِ مُغْلَقًا ، فَطَرَقْتُهُ طَرَقَاتٍ خَفِيفَةً .. ثُمَّ انْتَظَرْتُ وَلَمَّا لَمْ يُجَاوِبْنِى أَحَدٌ عَاوَدْتُ الطَّرْقَ عَلَى بَابِ الصَّوْمَعَةِ مَرَّةً أُخْرَى .. كَانَ الرَّاهِبُ مُنْشَغِلًا بِصَلَاتِهِ ، فَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَى الطَّرْقِ عَلَى بَابِ صَوْمَعَتِهِ ..

دَفَعْتُ بَابَ الصَّوْمَعَةِ بِرِفْقٍ فَانْفَتَحَ .. دَخَلْتُ وَوَقَفْتُ انْتَظِرُ الرَّاهِبَ ، حَتَّى انْتَهَى مِنْ صَلَاتِهِ ، فَحَيَّيْتُهُ ، فَرَدَّ عَلَىَّ التَّحِيَّةَ ، ثُمَّ سَأَلَنِى عَنْ حَاجَتِى ، فَقُلْتُ لَهُ :

« جِئْتُ أَسْتَفْتِيكَ فِى أَمْرٍ هَامٍّ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ أَرْجُو أَنْ تُفْتِيَنِى



فَقَالَ وَاثِقًا مِنْ نَفْسِهِ :

« سَلْ مَا تَشَاءُ أُجِبْكَ يَا وَلَدِى » ..

فَتَشَجَّعْتُ وَقُلْتُ لَهُ :

« مَا رَأْيُكَ فِى رَجُلٍ قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا .. هَلْ لِهَذَا الرَّجُلِ مِنْ تَوْبَةٍ إِلَى اللهِ ؟ »

فَارْتَجَفَ الرَّاهِبُ ، كَأَنَّمَا لَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ ، وَأَخَذَ يَسْتَعِيذُ بِاللهِ ، وَيُتَمْتِمُ بِكَلِمَاتٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ ، ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ وَنَظَرَ إِلَىَّ نَظَرَاتٍ كُلُّهَا اشْمِئْزَازٌ وَاحْتِقَارٌ .. ثُمَّ قَالَ لِى وَالْغَضَبُ يَمْلَأُ وَجْهَهُ :

« كَيْفَ يَطْمَعُ قَاتِلٌ مِثْلُكَ ، قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا فِى عَفْوِ اللهِ وَتَوْبَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ ؟! .. إِنَّ هَذَا تَبَجُّحٌ عَلَى اللهِ .. لَيْسَتْ لَكَ مِنْ تَوْبَةٍ .. اخْرُجْ مِنْ صَوْمَعَتِى الطَّاهِرَةِ قَبْلَ أَنْ تُدَنِّسَهَا بِذُنُوبِكَ وَخَطَايَاكَ .. إِنَّ مَلَائِكَةَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ تَلْعَنُكَ ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أُدَنِّسَ نَفْسِى بِهَذِهِ اللَّعَنَاتِ .. هَيَّا اغْرُبْ عَنْ وَجْهِى مَطْرُودًا مِنْ صَوْمَعَتِى كَمَا طُرِدْتَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » ..

ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى صَلَاتِهِ غَيْرَ عَابِئٍ بِي ..
سَدَّتْ كَلِمَاتُ الرَّاهِبِ كُلَّ أَبْوَابِ النَّجَاةِ وَالْأَمَلِ فِي رَحْمَةِ اللهِ



أَمَامَ وَجْهِي .. فَمَلأَ الْغَضَبُ صَدْرِى ، وَتَصَاعَدَ الدَّمُ إِلَى عُرُوقِى ، فَرَفَعْتُ عَصَاىَ وَأَهْوَيْتُ بِهَا عَلَى رَأْسِ الرَّاهِبِ فَقَتَلْتُهُ ، غَيْرَ نَادِمٍ عَلَى قَتْلِى لَهُ ، وَبِذَلِكَ ارْتَفَعَ رَصِيدِى مِنَ الْقَتْلَى إِلَى مِائَةِ شَخْصٍ .. أَصْبَحْتُ أَسْتَحِقُّ عَنْ جَدَارَةٍ لَقَبَ « قَاتِلِ الْمِائَةِ » الَّذِى تَعْرِفُونَنِى بِهِ ..

خَرَجْتُ مِنْ صَوْمَعَةِ الرَّاهِبِ ، وَأَنَا لَا أَدْرِى إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ بَعْدَ أَنْ أَوْصَدَ الرَّاهِبُ أَبْوَابَ رَحْمَةِ اللهِ فِى وَجْهِى .. هَلْ حَقًّا أَنَا عَاصٍ مَطْرُودٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَلَا تَوْبَةَ لِى ؟

مَشَيْتُ فِى الصَّحْرَاءِ ، وَظَلَلْتُ أَمْشِى ، وَأَنَا لَا أَدْرِى كَمْ مِنَ الْوَقْتِ مَضَى عَلَىَّ ، وَكَمْ مِنَ الطَّرِيقِ قَطَعْتُ ، وَإِلَى أَىِّ وِجْهَةٍ أَمْضِى .. وَأَخِيرًا وَجَدْتُ بَلْدَةً فَدَخَلْتُهَا .. كَانَ الْوَاضِحُ مِنْ مَلَامِحِ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلْدَةِ أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ،سَأَلْتُهُمْ :

« مَنْ هُوَ أَعْلَمُ رَجُلٍ بِهَذِهِ الْأَرْضِ » .

فَدَلُّونِى عَلَى عَالِمٍ ، وَقَالُوا لِى :

« اذْهَبْ إِلَيْهِ ، وَسَوْفَ يُجِيبُكَ عَنْ كُلِّ مَا تَسْأَلُهُ عَنْهُ .. إِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ وَفِى نَفْسِ الْوَقْتِ عَالِمٌ بِأَحْكَامِ الدِّينِ وَشَرَائِعِهِ وَلَنْ يَرُدَّكَ خَائِبًا ، دُونَ أَنْ يُفْتِيكَ فِى أَمْرِكَ » ..



ذَهَبْتُ إلَى حَيْثُ أشَارُوا عَلَيَّ .. طَرَقْتُ بَابَ الْعَالِمِ فَفَتَحَ لِى خَادِمٌ تَبْدُو مِنْ مَلاَمِحِهِ الطِّيبَةُ ، فَلَمَّا قُلْتُ لَهُ إنَّنِى أُرِيدُ أنْ أُقَابِلَ سَيِّدَكَ ، اصْطَحَبَنِى فَوْرًا إلَى حُجْرَةِ سَيِّدِهِ ، وَأدْخَلَنِى .. كَانَ الْعَالِمُ جَالِسًا يَقْرَأُ فِى بَعْضِ كُتُبِهِ الدِّينِيَّةِ ، فَلَمَّا رَآنِى ، نَحَّى كُتُبَهُ جَانِبًا وَنَهَضَ لاِسْتِقْبَالِى ، فَصَافَحَنِى مُرَحِّبًا ثُمَّ أجْلَسَنِى وَجَلَسَ .. ثُمَّ طَلَبَ لِى شَرَابًا ، وَقَالَ لِى :

« لاَ تَسَلْ عَنْ شَىْءٍ حَتَّى تُؤَدِّى لَكَ وَاجِبَ الضِّيَافَةِ » .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ حَضَرَ الْخَادِمُ وَقَدَّمَ لِى مَشْرُوبًا سَاخِنًا ، فَأخَذْتُ أحْتَسِيهِ عَلَى مَهَلٍ ، وَخِلاَلَ ذَلِكَ كُنْتُ أتَأمَّلُ الْعَالِمَ ، فَرَأيْتُ فِيهِ شَخْصًا تَنِمُّ مَلاَمِحُهُ عَنِ الطِّيبَةِ وَالْبَشَاشَةِ ، وَتَوَاضُعِ الْعُلَمَاءِ الْكِبَارِ .. فَلَمَّا انْتَهَيْتُ مِنْ شَرَابِى ، نَظَرَ إلَيَّ الْعَالِمُ بِوَجْهٍ بَشُوشٍ وَقَالَ لِى :

« سَلْ حَاجَتَكَ تُقْضَ إنْ شَاءَ اللهُ يَا أخِى » ..

شَجَّعَتْنِى كَلِمَاتُهُ فَقُلْتُ لَهُ عَلَى الْفَوْرِ :

« لَقَدْ قَتَلْتُ مِائَةَ نَفْسٍ ..

فَهَلْ لِى مِنْ تَوْبَةٍ إلَى اللهِ ؟ » .

لَمْ تَظْهَرْ عَلاَمَاتُ الاسْتِنْكَارِ أوِ الدَّهْشَةِ أوِ الْغَضَبِ عَلَى وَجْهِ



الْعَالِمِ ، كَمَا فَعَلَ الرَّاهِبُ مَعِى .. بَلْ إِنَّهُ تَبَسَّمَ ابْتِسَامَةً بَشُوشًا وَقَالَ لِى بِأَدَبٍ جَمٍّ : « نَعَمْ يَا أَخِى .. وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ » ؟..

دَاخَلَنِى الْبِشْرُ وَطَفَحَ قَلْبِى بِالسُّرُورِ ، مِنْ هَذَا الْعَالِمِ الطَّيِّبِ الَّذِى فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّجَاءِ وَالتَّوْبَةِ عَلَى مَصَارِيعِهَا أَمَامِى ، وَلَمْ يُغْلِقْهَا بِأَقْفَالٍ مُحَصَّنَةٍ ، كَمَا فَعَلَ الرَّاهِبُ .. فَسَارَعْتُ أَقُولُ لَهُ : « وَمَاذَا أَفْعَلُ لِأَتُوبَ إِلَى اللهِ أَيُّهَا الْعَالِمُ الْجَلِيلُ ؟ » .



فَقَالَ الْعَالِمُ وَقَدْ اتَّسَعَتْ ابْتِسَامَتُهُ لِتُضِيءَ وَجْهَهُ :

« أَوَّلُ شُرُوطِ التَّوْبَةِ أَنْ يُقْلِعَ الْمَرْءُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ تَكُفَّ نِهَائِيًّا عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ » .

فَقُلْتُ لَهُ :

« قَدْ أَقْلَعْتُ وَالْحَمْدُ لِلهِ » . .

فَقَالَ لِى :

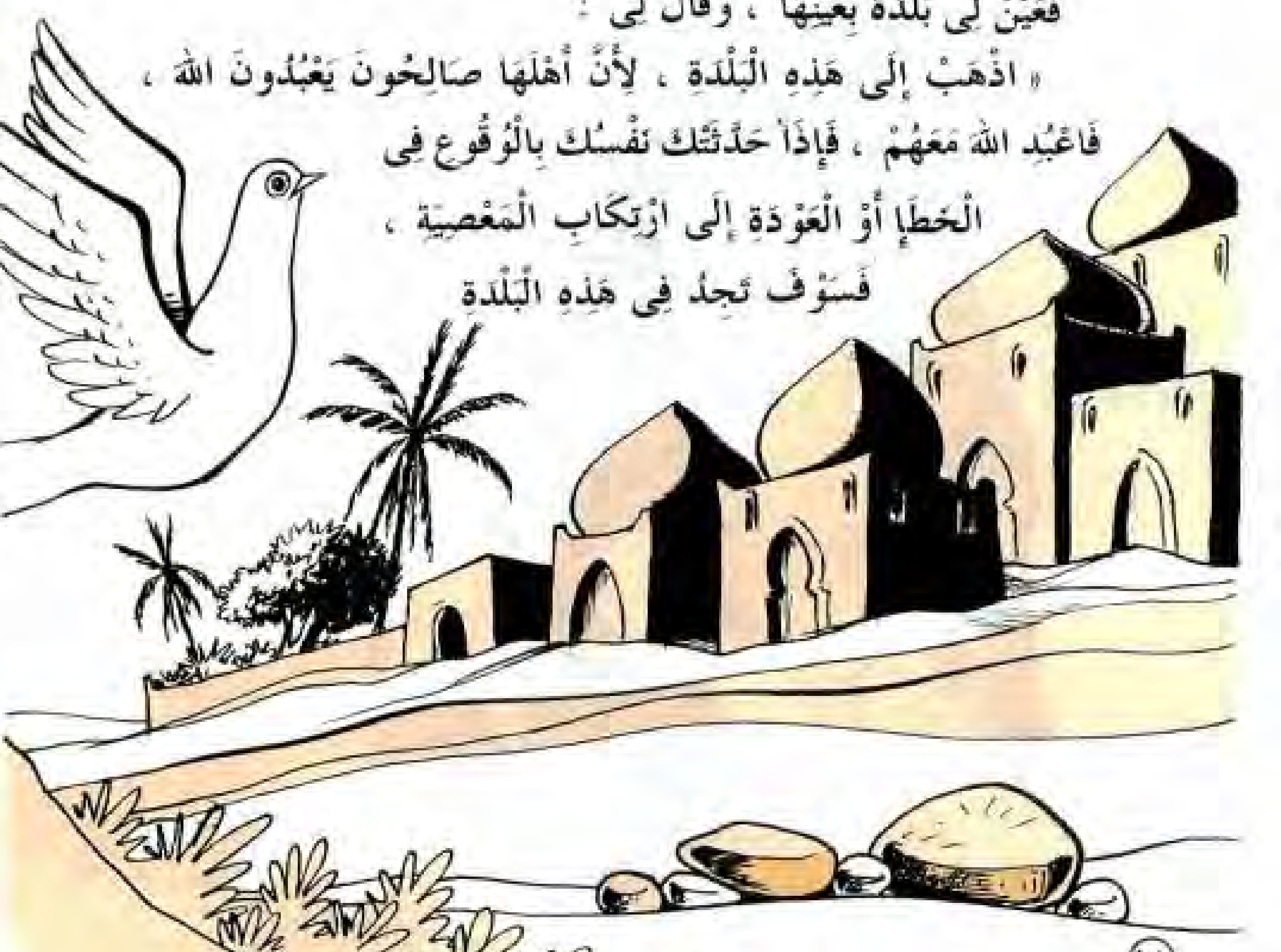


« يَجِبُ أَنْ تَرْحَلَ عَنْ قَرْيَتِكَ لِأَنَّهُ مِنَ الْوَاضِحِ مِنْ كَلَامِكَ أَنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ وَمَعْصِيَةٍ ، وَوُجُودُكَ فِيهَا سَوْفَ يُعَرِّضُكَ إِلَى الْوُقُوعِ فِى الْخَطَإِ وَارْتِكَابِ الْمَعَاصِى مَرَّةً أُخْرَى » .

فَقُلْتُ لَهُ : « وَإِلَى أَيْنَ أَتَّجِهُ » .

فَعَيَّنَ لِى بَلْدَةً بِعَيْنِهَا ، وَقَالَ لِى :

« اذْهَبْ إِلَى هَذِهِ الْبَلْدَةِ ، لِأَنَّ أَهْلَهَا صَالِحُونَ يَعْبُدُونَ اللهَ ، فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ ، فَإِذَا حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بِالْوُقُوعِ فِى الْخَطَإِ أَوْ الْعَوْدَةِ إِلَى ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ ، فَسَوْفَ تَجِدُ فِى هَذِهِ الْبَلْدَةِ



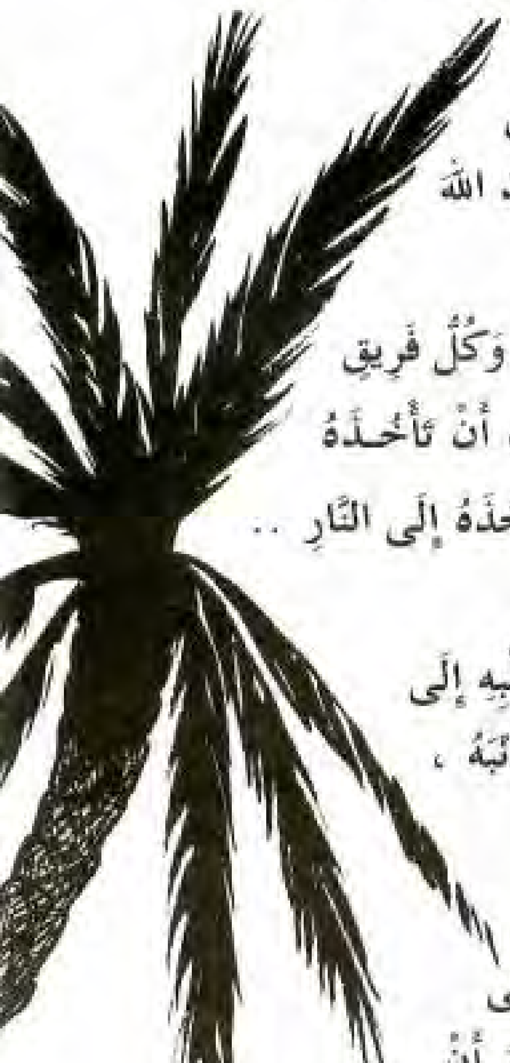
أناسًا طَيِّبِينَ يَنْصَحُونَكَ بِالابْتِعَادِ عَنِ الْخَطَإِ ، فَتَعُودُ إِلَى الصَّوَابِ » .

شَكَرَ قَاتِلُ الْمِائَةِ الْعَالِمَ الْجَلِيلَ الَّذِى هَدَاهُ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ قَاصِدًا الْبَلْدَةَ الَّتِى أَشَارَ عَلَيْهِ بِالذَّهَابِ إِلَيْهَا لِيَعْبُدَ اللهَ مَعَ أَهْلِهَا الصَّالِحِينَ ..



وَمَا إِنْ وَصَلَ إِلَى مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ ، حَتَّى قَضَى أَجَلَهُ .. أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، فَقَبَضَ رُوحَهُ ..

صَعِدَتْ رُوحُ « قَاتِلِ الْمِائَةِ » التَّائِبِ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَى بَارِئِهَا قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْأَرْضِ الصَّالِحَةِ ، لِيَعْبُدَ اللهَ مَعَ أَهْلِهَا الصَّالِحِينَ .. مَاتَ تَائِبًا مِنْ ذَنْبِهِ ..



حَضَرَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، وَكُلُّ فَرِيقٍ يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَهُ إِلَيْهِ .. مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَرَادَتْ أَنْ تَأْخُذَهُ إِلَى الْجَنَّةِ .. وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ أَرَادَتْ أَنْ تَأْخُذَهُ إِلَى النَّارِ ..

قَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ :

« لَقَدْ جَاءَ هَذَا الْعَبْدُ تَائِبًا مِنْ ذُنُوبِهِ مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ ، وَحَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يَقْبَلَ تَوْبَتَهُ ، وَيَغْفِرَ لَهُ ذَنْبَهُ ، فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ » ..

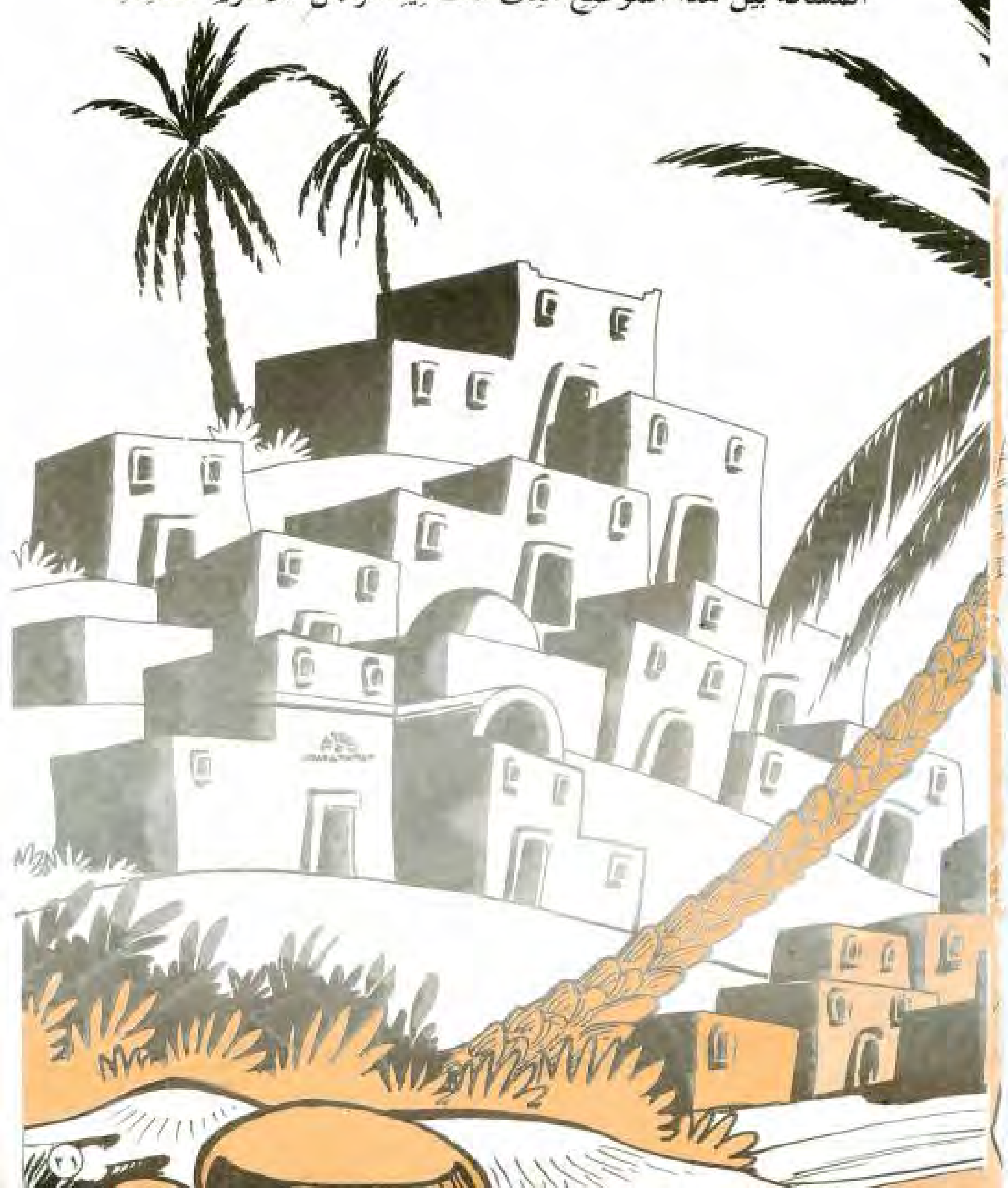
وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ :

« إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ التَّائِبَ ، لَمْ يَفْعَلْ خَيْرًا قَطُّ فِي حَيَاتِهِ ، فَالْجَزَاءُ الْعَادِلُ لَهُ عَنْ ذُنُوبِهِ وَآثَامِهِ ، هُوَ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ » .. وَهَكَذَا حَدَثَ خِلَافٌ بَيْنَ كُلٍّ مِنْ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةِ الْعَذَابِ ، فَأَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ مَلَكًا فِي صُورَةِ رَجُلٍ لِيَحْكُمَ فِي النِّزَاعِ الَّذِي نَشَأَ بَيْنَهُمْ ..



فَقَالَ لَهُمْ الْمَلَكُ :

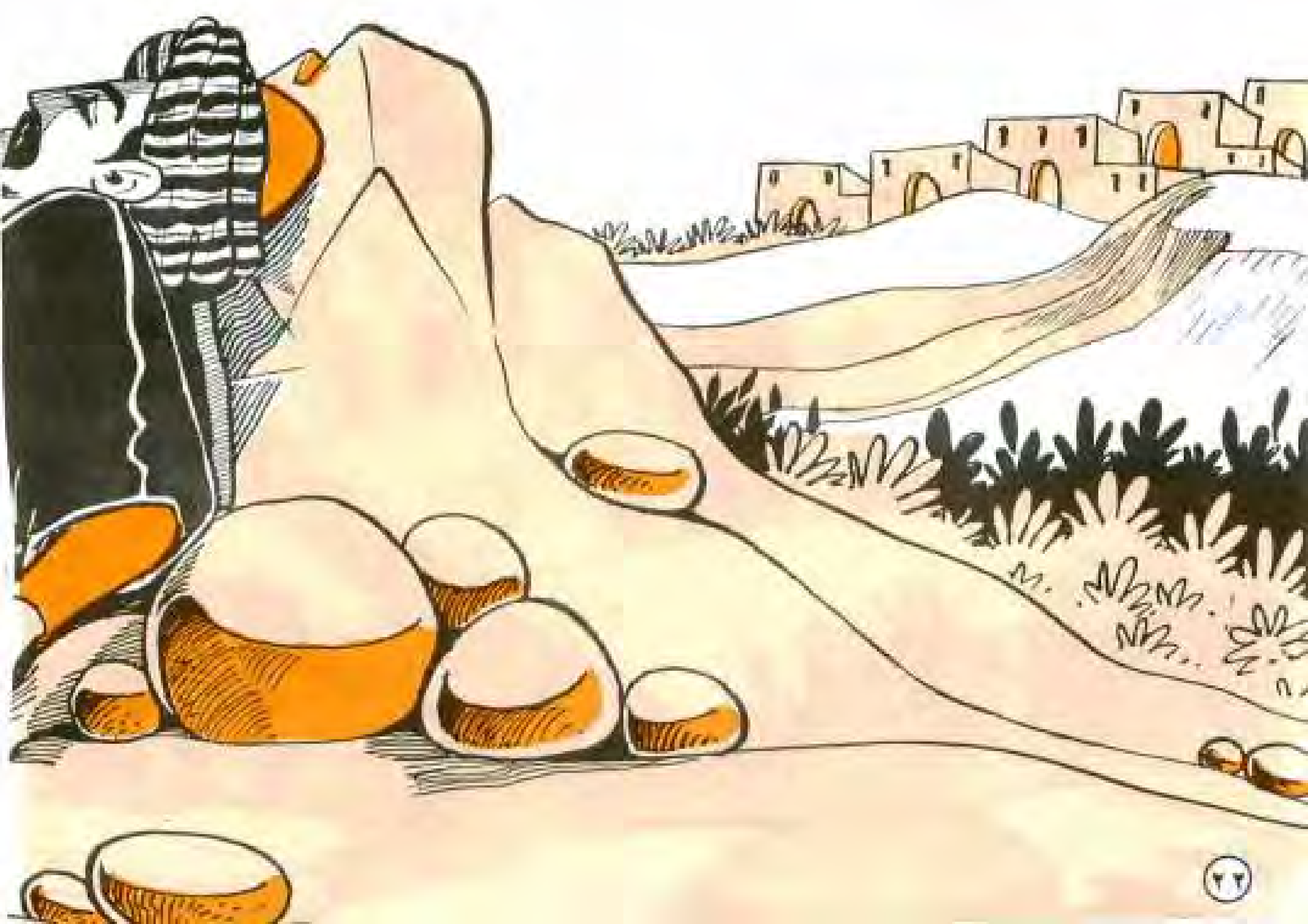
« أَفْضَلُ طَرِيقَةٍ لِلْفَصْلِ فِى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْخَطِيرَةِ ، هِىَ أَنْ تَقِيسُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ هَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِى مَاتَ فِيهِ الرَّجُلُ ، وَالْقَرْيَةِ الظَّالِمَةِ



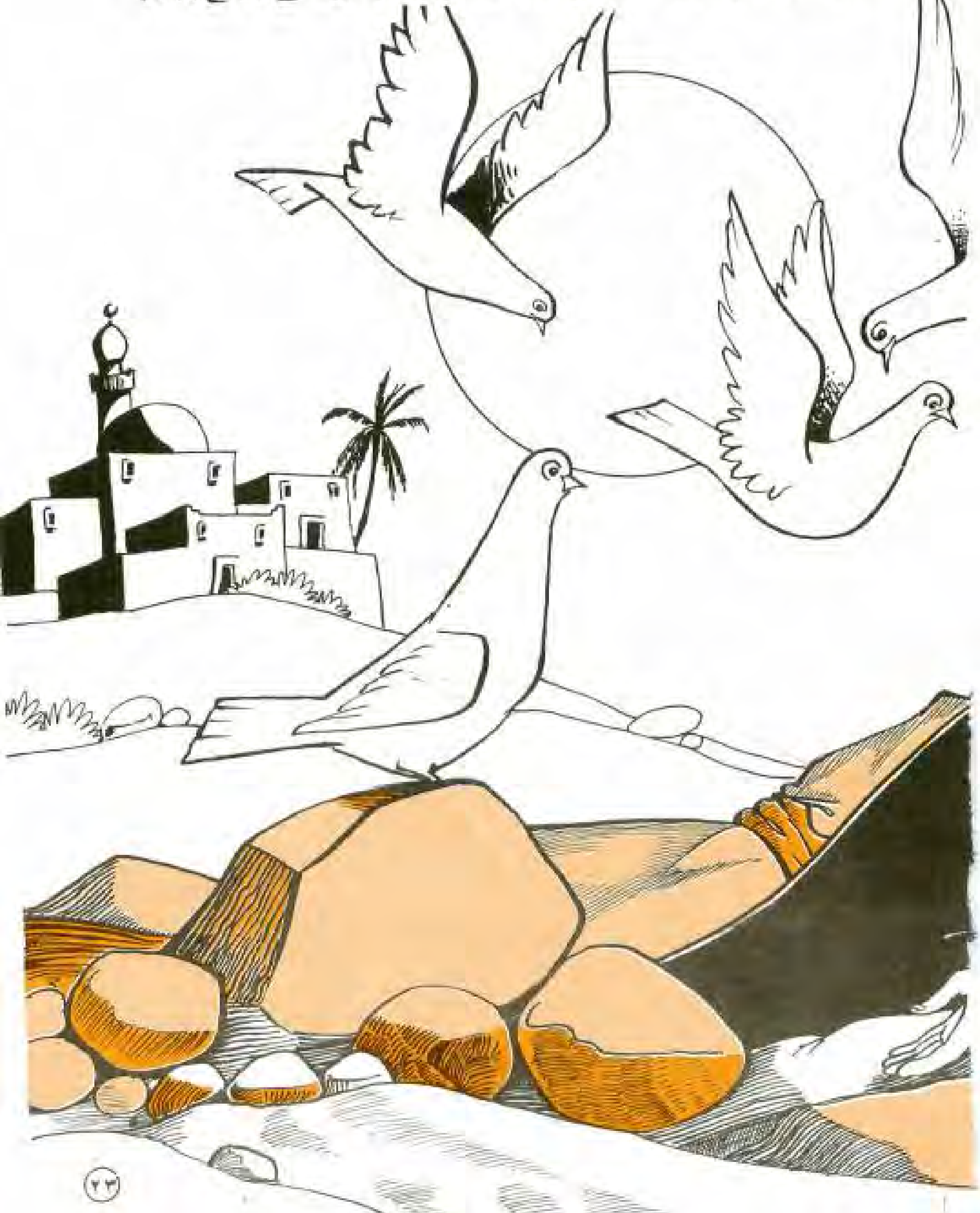


الَّتِى جَاءَ مِنْهَا تَائِبًا ، وَتَقِيسُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ هَذَا الْمَوْضِعِ وَالْأَرْضِ الصَّالِحَةِ الَّتِى كَانَ ذَاهِبًا يَعْبُدُ اللهَ فِيهَا ، فَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى الْأَرْضِ الظَّالِمَةِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى الْأَرْضِ الصَّالِحَةِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى » .

اقْتَنَعَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِحُكْمِ الْمَلَكِ ، وَقَاسُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ مَوْضِعِ كُلٍّ مِنَ الْأَرْضِ الظَّالِمَةِ ، وَالْأَرْضِ الصَّالِحَةِ ، فَوَجَدُوا أَنَّ الرَّجُلَ أَقْرَبُ إِلَى الْأَرْضِ الصَّالِحَةِ ، فَأَخَذَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ لِيَدْخُلَ الْجَنَّةَ . .



هَكَذا تَنْتَهِي قِصَّةُ « قَاتِلِ الْمِائَةِ » أَوِ « التَّائِبِ مِنَ الذَّنْبِ » لِيُثْبِتَ حَقِيقَةً هَامَّةً وَخَطِيرَةً ، وَهِيَ أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ تَسَعُ جَمِيعَ عِبَادِهِ



حَتَّى الْخَاطِئِينَ مِنْهُمْ ، فَلَا يَيْئَسْ إِنْسَانٌ مَهْمَا عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ (تَعَالَى) ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يُسَارِعَ إِلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الْعُمْرِ وانْقِضَاءِ الْأَجَلِ ..

(تَمَّتْ)

رقم الإيداع ٣٤٠٥

الترقيم الدولي ١ ــ ١٣٦ ــ ٢٦٦ ــ ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ و ١٠ شارع ١٧ المنطقة الصناعية بالعباسية

القاهرة ـ ☎ ١٨٩٣٧٩٦ ـ ٢٨٣٥٥٥٤